



عمرسان عبد اللطيف

وَبَعْدَ «حَتَّى» هَكَذَا....

على باب غرفته كان يضع لوحة ورقية مكتوباً عليها حرف (حتى) وقد أحيط هذا الحرف ببحر وجبل ومجموعة أشواك وواد سحيق وصحراء تبدو فيها سفينة تقطع الفيافي إلى غير ذلك من صخور وحُفر بمختلف أحجامها الصغير والكبير علاوة على طرق مزق أوصالها زلزال عنيف..! وقد شد انتباهي هذا الرسم العجيب وبدأتُ شارد الذهن عما يدور في جلسة الحضور، وأنا أفكر دون أن أوفق في الحصول على أي معنى أو تفسير لهذه اللوحة الفنية الرقيقة والمخيفة في نفس الوقت.

ورغم أنني كنت أدرك أن ذلك ربما يكون نوعاً من الخصوصيات إلا أن الفضول غلبني فوجدت نفسي أسأل مضيقي بطريقة عفوية عن سر هذه اللوحة الفنية، فأجابني أن هذا هو موضوع رسالتي للدكتوراه. قلت له لكنني أرى أمامي بحاراً وجبالاً وودياناً وصحاري وأشياء كثيرة من وحي الطبيعة، فهل موضوع رسالتك بهذه كلها؟ أو بشيء منها؟ أجاب: ليس بأي واحد منها، لكنه في (حتى)، ورغم ذلك لم يكن سهلاً علي أن أستوعب ما يعنيه مضيقتنا، فأفهمني أن موضوع رسالته في حرف (حتى)، قلت له: لكنه حرفاً أجاب ضاحكاً: بالفعل، لكنه حرف قادر على أن يكسر... وينصب... ويرفع... في آن واحد.. قلت له: لكنه عنوان صغير وحرف صغير لا يتناسب مع رسالة علمية رفيعة المستوى، ضحك فقال: ألا تذكر «المقولة الشائعة» إن البعوضة تدمي مقلة الأسد!! قلت له: حقاً، ولكن ما الذي دفعك أن تختار هذا الحرف بالذات وتجعل منه مشروعاً لدرجة دكتوراه؟ أجاب: هذه لغتنا... عظيمة في كل شيء... كل حرف فيها بحر... وكل حرف فيها قوي. عندها تذكرت ما قاله الأخفش (أموت وفي نفسي شيء من «حتى»). وقبل أن ينتهي الحوار تسربت إلى أنوفنا رائحة سمك مشوي جعلتنا ننسى الحديث ونتأهب فوراً لتناول طعام الغداء، فهتف صاحبنا كل واحد يأكل سمكته حتى رأسها (بكسر السين) ... حتى رأسها (بضم السين) ... حتى رأسها (بفتح السين). وضحك الجميع فتذكرت حينها قول ابن مالك في ألفيته:

وَبَعْدَ «حَتَّى» هَكَذَا إِضْمَارُ أَنْ حَتْمٌ كَجَدُّ حَتَّى تُسَرِّدَا حَزْنُ

لكن الفضول لم يستوفضني فعادت سؤالي عن هذه البحار والجبال والوديان والصحاري المحيطة ب(حتى).. فأجاب مضيقتنا: إن معنى ذلك أن الوصول إلى (حتى) والبحث في أسرارها والسبر في أغوارها، طريق صعب مليء بالأشواك والمتاعب والأهوال فمن أجل هذا الحرف نجوب الدنيا بحثاً عن المعلومة، وأدركنا من جديد أن ما كان يقوله عباقرة اللغة والأدب لم يدخل في باب الطرفرة أو النكتة وإنما يدخل في باب التأكيد على عظمة لغتنا التي تحمل لنا تراثاً لم تحمله لغة من اللغات، وذلك أمر طبيعي بأن تتحلى لغتنا العربية بهذه العظمة وهذا الشموخ، أوليست هي لغة القرآن العظيم؟

إلى اللقاء

